أثر الترجمة في فكر رفاعة الطهطاوي

المرأة في تخليص الإبريز نموذجًا

أكثر الذين تعرضوا لكتب رفاعة بالدراسة وتعريف القراء بها، صنفوا كتابه)تخليص الإبريز في تلخيص باريز أو) الديوان النفيس بإيوان باريس (على أنه من .أوائل الكتب التي ألفها[١]

وقد ذكر في مقدمة كتابه أنه لما اختير مبعوثًا إلى باريس أشار عليه شيخه حسن العطار أن ينبه على ما يقع في هذه السفرة وما يصادفه من الأمور العجيبة في تلك البقاع، ليكون كتابه هذا دليً لا يهتدي به إلى السفر طلاب الأسفار، خاصة وأن هذا الكتاب يعد الأول من نوعه الذي يتحدث عن تاريخ باريس، ثم يكمل رفاعة قائلا" :وقد حاولت في تأليف هذا الكتاب سلوك طريق الإيجاز ".

اتخذ رفاعة لنفسه خطة يسير عليها، فقد أخذ عهدًا على نفسه ألا يحيد في جميع ما يقوله عن طريق الحق، وألا يخالف نص الشريعة الإسلامية، وقد ذكر غرضه من الرحلة بأنه ليس مقتصرًا على ذكر السفر ووقائعه، بل سيضيف إليه موجزًا عن العلوم والصنائع كما يراها الإفرنج، وقد وعد أن يكون تناول هذه الموضوعات سهلا حتى يمكن لكلّ الناس الاستفادة منه .

---

[١] ١ أصول الفكر العربي الحديث عند الطهطاوي مع النص الكامل لكتابه) تخليص الإبيز(، دراسة وتعليق د .. محمود فهمي حجازي، مصر الهيئة .المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٤ ، ص ١٤٢

وهو يشيد بعد ذلك بتنبه محمد علي باشا إلى أهمية العلوم التي ستكون وسيلة لإعادة شباب مصر ومكانتها القديمة، وذلك عن طريق اللجوء إلى الاقتباس عن الإفرنج سواء باستقدامهم إلى بلاده والإغداق عليهم، أو إرسال البعثات المتتالية التي ستقوم بتحصيل العلوم والفنون ونشرها وتكثير تداولها وترجمة كتبها وطبعها .

وعلى الرغم مما كان يؤمله من فائدة لمصر نتيجة إرسال هذه البعثات، فإنه بدأ كتابه بوصف فرنسا على أنها ديار كفر وعناد، وبعيدة عنّا غاية الابتعاد .

ويضيف بأن أهل باريس نصارى بالاسم، حيث لا يتخذون النصرانية دينًا لهم، ولا غيرة لهم عليها، ووصفهم بأنهم من الفرق التي تحسن وتقبح بالعقل .

ومع كل ما ذكره عن كفر الفرنسيين، وتخليهم عن نصرانيتهم، فإنه أبدى إعجابًا منقطع النظير ببلادهم مستشهدًا برأي بعض الشعراء.

من لم ير الروم ولا أهلها ما عرف الدنيا ولا الناسا

مما سبق نلاحظ أن رفاعة استطاع أن يفرق في فرنسا بين كون أهلها كفارًا أو غير متدينين، وبين كونها بلاد علم ومعرفة، وذلك لأن الإنسان في تلك البلاد يأمن على دينه، فلا ضرر في السفر لتحصيل العلوم والفنون .

ومن الواضح أنه رأى أن أفضل وسيلتين لاكتساب المعرفة والعلم من الإفرنج هما :"إرسال البعثات وترجمة كتبهم وطبعها، وقد رأى في الترجمة فنًا مستقلا، وقد عرفه بقوله" :وهو من الفنون الصعبة، خصوصًا ترجمة الكتب العلمية فإنه يحتاج إلى معرفة اصطلاحات أصول العلوم المراد ترجمتها، فهو عبارة عن معرفة لسان المترجم عنه وإليه وفن المترجم فيه ."

ومن الواضح أن الطهطاوي الذي تخصص بالترجمة يستطيع أن يفرق بدقة بين الترجمة والتأليف والتعريب، ولهذا يذكر في معرض حديثه عن حسن العطار المولع بالإطلاع على غرائب الآثار، أن أستاذه أوصاه أن يسجل ما يصادفه من الأمور الغريبة في هذه الرحلة، لتكون دليلاً لمن بعده من طلاب الأسفار، خصوصًا وأنه لم يظهر باللغة العربية شيء في تاريخ باريس قبل كتابه .

وبإعادة قراءة العبارة السابقة يلاحظ أن رفاعة لم يذكر أنه ترجم ما جاء في كتاب التخليص عن الفرنسية، كما لم يذكر أنه قام بتأليفه؛ وهذا يعني أن الكتاب ليس ترجمة حرفية عن الفرنسية، وليس تأليفًا خالصًا، وإنما لجأ إلى أسلوب جمع فيه بين الترجمة والتأليف والنقل، يقول في معرض حديثه عن الإسكندرية، حيث بدأ رحلته: " في ذكر نبذة تتعلق بهذه المدينة لخصناها من عدة كتب عربية وفرنساوية .".....

ولذلك أرى من المناسب أن يطلق على الطريقة التي اتبعها رفاعة عند وضع كتابه بأنها (توليف) أي أنه جمع بين الترجمة والتأليف والنقل،

وهذا يدخل هذه الدراسة في إطار من أطر الترجمة الـذي يتـيح دراسـة تأثيرها على الحوار بين الحضارات.

وحتى نستطيع أن نتبين أثر هذا الكتاب(تخليص الإبريز) في حوار الحضارات سيتوقف الباحث عند جزئية واحدة تناولها الكتاب في مواقـف متناثرة على امتداد صحفاته، ويقصد بذلك (موضوع المرأة)، حيث سيحاول أن يرسم صورة المرأة كما رآها رفاعة، لتوضيح أثر الحضارة الغربية على موقفه منها، ومن المعروف أن الإنسان الوافد الى بلد من البلدان، ربمـا كانت الجوانب المتعلقة بالحياة الاجتماعية هي أول ما يلفت انتباهـه مـن مطعم وملبس، وخاصة فيما يتعلق بالمرأة، فما هو الانطباع الأولي الـذي كونه رفاعة عن هذه الجوانب؟ يقول" : " ولم نشعر في أول يـوم إلا وقـد حضر لنا أمور غريبة في غالبها، وذلك أنهم أحـضروا لنـا عـدة خـدم فرنساوية ...ونحو مائة كرسي للجلوس عليها ...ثم مدوا السفرة للفطور، ثم جاءوا بطبليات عالية، ثم رصوها من الصحون البيضاء .وجعلوا قدام كل صحن قدحًا من القزاز وسكينًا وشوكة وملعقة ....، ثـم جـاءوا بـالطبيخ فوضعوا في كل طبلية صحنًا كبيرًا أو صحنين، ليغرف أحد أهل الطبليـة، ويقسم على الجميع فيعطي لكل إنسان في صحنه شيئًا يقطعه بالسكين التي قدامه، ثم يوصله إلى فمه بالشوكة لا بيده، فلا يأكل الإنسان بيده أصلا ولا بشوكة غيره أو سكينه أو يشرب في قدحه أبدًا، ويزعمون أن هذا أنظـف وأسلم عاقبة " ...

وللطعام عندهم عدة مراتب معروفة ...فأول افتتاحهم الطعام يكون بالشوربة، ثم بعده باللحوم، ثم بكل نوع من أنواع الأطعمة كالخضروات ...

ثم بالسلطة، ثم يختمون أكلهم بالفواكه، ثم بالشراب المخدر ...وهذا الأمر مطرد للغني والفقير كلٌّ على حسب حاله ...[١٢]

ولم يقف انبهار رفاعة عند حد الإعجاب بطريقة تناول الطعام وترتيبه على المائدة وأدواته، وإنما أبدى انبهاره كذلك بالأماكن العامة التي يقضي فيها الفرنسيون أوقات فراغهم، يقول :" كنا نخرج بعض ساعات للتسلي في البلد (مرسيليا) وندخل بعض القهاوي، والقهاوي عندهم ليست مجمعًا للحرافيش بل هي مجمع لأرباب الحشمة ...فأول مرة خرجنا إلى البلدة مررنا بالدكاكين العظيمة الوضع ..والمشحونة بالنساء الجميلات ... وعادة نساء هذه البلاد كشف الوجه، والرأس، والنحر، وما تحته، والقفا، وما تحته، واليدين إلى قرب المنكبين، والعادة أيضا أن البيع والشراء بالأصالة للنساء، وأما الأشغال فهي للرجال ...وكان أول ما وقع عليه بصرنا من التحف قهوة عظيمة دخلناها ...والقهوجية امرأة جالسة على صفة عظيمة ..وقدامها دواة "...

على انه بعد انتقال رفاعة من مرسيليا وإقامته في باريس وتعرفه على الحياة الفرنسية بطريقة أوضح رأى أن الفرنسيين ينفقون أموالهم من أجل إشباع الشهوات واللهو، وهم في غاية الإسراف، وأضاف أن الرجال في فرنسا عبيد النساء "وتحت أمرهن سواء كان جميلات أم لا "...

وأضاف أن كثيرًا من نسائهم يمتزن بقلة العفاف، كما أن الرجال في فرنسا لا يبدون الغيرة على نسائهم، كما يفعل المسلمون، وبعد ما ذكره

رفاعة عن أخلاق الفرنساويات أضاف قائلاً :" ولا يظن الإفرنج بنسائهم ظنًا سيئًا أصلاً مع أن هف واتهن كثيرة معهم "..

ومع كل ما ذكره من هفوات النساء الفرنسيات، فإنه أبدى إعجاباً شديدًا بجمالهن، يقول :" ونساء الفرنساويات بارعات الجمال واللطافة حسان المسامرة والملاحظة يتبرجن دائمًا بالزينة، ويختلطن مع الرجال في المتنزهات، وربما حدث التعارف بينهن وبين بعض الرجال في تلك المحال سواء الأحرار وغيرهن، خصوصًا يوم الأحد...

وليلة الاثنين في البالات والمراقص ...ومما قيل :إن باريس جنة النساء وأعراف الرجال ....وذلك أن النساء بها منعمات سواء بمالهن أو بجمالهن، وأما الرجال فإنهم بين هؤلاء عبيد النساء، فإن الإنسان يحرم نفسه وينزه عشيقته "..

ومن الأمور التي لفتت انتباه الطهطاوي في المرأة الفرنسية لطف ملابسها على الرغم مما فيها من خلاعة إلى جانب ما تتزين به من الحلي، وقد أطال في وصف ما ذكره بقوله :" وملابس النساء ببلاد الفرنسيس لطيفة بها نوع من الخلاعة، خصوصًا إذا تزين بأغلى ما عليهن، ولكن ليس لهن كثير من الحلي، فإن حليهن هو الحلق المذهب في آذانهن ... وعقد خفيف في أجيادهن ...ولبسهن في العادة الأقمشة الرقيقة من الحرير ...ولهن في البرد شريط فروة فيضعنه على رقابهن ... ومن عوائدهن أن يحتزمن بحزام رقيق فوق أثوابهن حتى يظهر الخصر نحيفًا، ويبرز الردف كثيفًا... ومن عوائدهن في أيام الحر كشف الأشياء الظاهرية

من البدن، فيكشفن من الرأس إلى ما فوق الثدي، حتى إنه يمكن أن يظهر ظهرهن، وفي ليالي الرقص يخلعن عن أذرعتهن ...ولكن لا يمكن لهن أبدًا كشف شيء من الرجلين، بل هن دائمًا لابسات للشرابات الساترة للساقين، وفي الحقيقة سيقانهن غير عظيمة "...

آثرت أن أطيل في نقل هذا النص، ليتعرف القارئ على القيم الجمالية المادية عند المرأة الفرنسية، إذ من الواضح أنه لم يترك شأنًا من شؤون المرأة المتعلقة بأزيائها ومظهرها إلا ووصفه، من الرأس إلى أخمص القدمين، فقد ذكر طريقة تصفيفها لشعرها، كما أشار إلى ساقيها اللذين تبدو عليهما النحافة، ومن الملاحظ كذلك أنه أجرى مقارنة في بعض الأمور بين المرأة الشرقية والفرنسية، فمثلا وجد أن الفرنسية لا تأبه كثيرًا بالحلي ولا تضع الخلاخيل في ساقيها على العكس من المرأة الشرقية، كما أبدى إعجابه بضم المرأة الفرنسية شعرها في وسط رأسها، يقول :" ومن خصالهن التي لا يمكن للإنسان ألا يستحسنها منهن عدم إرخاء شعورهن، كعادة نساء العرب ."

وهذا يعني أن ذوق رفاعة الشرقي بدأ يتغير لصالح نموذج المرأة الغربية، ومما يزيد الأمر تأكيدًا أنه أبدى ارتياحًا لما تبدو عليه المرأة الفرنسية من لطافة ناجمة عن خلاعة الملابس التي تختارها، وقد ازداد الأمر وضوحًا في حديثه عن الرقص، يقول: " ... أن الرقص عندهم فن من الفنون ...ويتعلق بالرقص في فرنسا كل الناس، وكأنه نوع من التفاخر لا من الفسق، فلذلك كان دائمًا خارجًا عن قوانين الحياء بخلاف الرقص في أرض مصر، فإنه من خصوصيات النساء، لإنه لتهييج الشهوات، وأما في

باريس فإنه نمط مخصوص، لا يشم منه رائحة العهر أبدًا، وكل إنسان يعزم امرأة يرقص معها ...وتفرح النساء بكثرة الراغبين في الرقص معهن، ولا يكفيهن واحد ولا اثنان ...بل يحببن رؤية كثير من الناس يرقص معهن لسآمة أنفسهن من التعلق بشيء واحد ....وقد يقع في الرقص رقصة مخصوصة، بأن يرقص الإنسان ويده في خاصرة من ترقص معه، وأغلب الأوقات يمسكها بيده، وبالجملة فمس المرأة أيّامًا كانت في الجهة العليا من البدن غير عيب عند هؤلاء "...

وبإعادة قراءة هذا النص والنصوص السابقة المتعلقة بمواقفه من المرأة يحق لنا أن نطرح تساؤلا يتعلق بموقف رفاعة من تصرفات المرأة الفرنسية؟ وهل كان مؤيدًا لسلوكها الذي وصفه سواء فيما يتعلق بنزولها إلى ميدان العمل أو باختيارها لملابسها وزينتها أو فيما يتعلق بتصرفها مع الرجل في حلبات الرقص؟

يلاحظ القارئ للفقرات العديدة التي اقتبست من كتابه (تخليص الإبريز) أنه يعتمد في إيراد مادة الكتاب على وصف دقيق لمشاهداته، فهو بهذه المثابة موضوعي، وربما يحاول أن يقنعنا بأنه حيادي، ولكن هناك مواقف تشي بتأثره بالنموذج الفرنسي المتعلق بشؤون المرأة وسأشير هنا إلى موقفين فقط :الأول يتعلق بإعجابه بملابس النساء على الرغم من كونها خليعة، وكذلك إعجابه بطريقة تصفيف شعورهن .ولا يقف الأمر عند هذا الحد، بل قارن بين طريقتهن وبين ما عليه النساء العربيات من إرخاء شعورهن، فخرج بنتيجة مفادها :" أن ما تفعله الفرنسيات بشعورهن خصال

لا يمكن للإنسان إلا أن يستحسنها" .أما إرخاء الشعور عند النساء العربيات، فهي عادة غير مريحة.

أما الموقف الثاني فهو المتعلق بتفضيله الرقص الغربي المختلط الذي قد تكون فيه رقصة يمكن أثناءها للرجل أن يضع يده في خاصرة من يراقصها، ويسمح له بمس جسم المرأة في أي مكان من الجهة العليا من البدن دون حرج، هذا الرقص المختلط عده رفاعة رياضة وفنًا وفتوة بينما عُد الرقص غير المختلط الذي تقوم به المرأة المصرية بعيدًا عن أعين الرجال وأمام النساء فقط شيئًا من الفجور وتهييجًا للشهوات.

كيف يستطيع الباحث أن يفسر رأي رفاعة فيما يتعلق بالرقص والملابس عند النساء الفرنسيات؟ هل هو ناجم عن الإعجاب بهذه القيم الجديدة فقط؟ أم أن الرجل صدر في هذا الموقف عن قناعة تامة بمبدأ الحرية التي نادت بها الثورة الفرنسية؟ أم أن ما حدث نوع من الافتتان بأنظمة الفرنسيين وطرائق حياتهم؟[1]

وهل كانت هذه المواقف ناجمة عن جسارة ورغبة في التغيير؟ وهل هي دعوة صريحة من شاب أزهري في مقتبل العمر إلى تقليد النموذج الفرنسي؟ [2]

---

[1] الإسلام والحضارة الغربية، محمد محمد حسين، بيروت، المكتب الإسلامي، ط□، 1979 .

[2] العدالة والحرية في فجر النهضة العربية الحديثة، عزت قرني، سلسلة عالم المعرفة، ع ٣٠